علم الكلام
نشأتـــــه وموقف السلف منه

إعداد

د/ محمد بن عبد الله البريدي

الأستاذ المشارك- بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة وأصول الدين

بجامعة الملك خالد

إن الحمد نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشـــهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد،،

فـــإن الله تعالـــى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ولم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى أتم به النعمة وأكمل به الدين، وترك الناس على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وكلما ابتعد العهد عن زمن النبوة وإشعاعها ذهب حملـــة الدين العدول الذين ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وجـــاء من بعدهم خلوف واتسعت رقعة البلاد التي بسط عليها الإسلام ظلالـــه ودخـــل فيه الراغب والراهب من أمم وشعوب شتى وديانات وفلسفات مختلفة مما أدى إلى تسرب بعض عقائد هؤلاء الأخلاف إلى صفوف المسلمين وأثيـــر الجدل حول أصول الدين وأخذ بعض أهل تلك العقائد والملل ينازعون ويناقـــشون نقاشـــاً فكرياً شديداً بناء على ما عندهم من ثقافات وخلفيات دينية سابقة، وخاصة ممن لم يتمكن الإيمان من قلبه ولم يتخلص من رواسب عقيدته الســـابقة ومـــنهجه الجدلـــي المعروف عنده، بالإضافة إلى أن بعض الأعاجم يجهلـــون اللغـــة العـــربية التـــي نزل بها القرآن الكريم ليفهم بها وتفسر بها

نـــصوصه، وكـــذلك سنة رسوله الشارحة والموضحة لمبهمه والمبينة لمشكلة فكـــان بعـــضهم يفتات على تلك النصوص حسب فهمه أو مما يدين به سابقاً، مخالفين أهل العلم والرسوخ في الدين من العلماء والهداة المصلحين، وقد حذّر الأئمة من تلك الفهوم السقيمة عند الأعاجم، ولو تأملنا المسائل التي أثيرت بين المسلمين ودار حولها النقاش والجدل والتشكيك نجد أنها لم تظهر بشكل واضح إلا بعـــد اخـــتلاط المـــسلمين العرب بغيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب المخـــتلفة ســـواء كان مباشراً كما في الفتوحات الإسلامية أو غير مباشر عبر قنوات الترجمة وتلقف الأفكار المضللة التي نشرتها بين المسلمين.

وعلـــى أثر تلك الأحداث كلها ظهرت الفرق والمذاهب كل يبتدع عقائد وأقوالاً لم يقلها الأوائل حيث اعتمدوا على آرائهم وجعلوا الشريعة ونصوصها تحـــت الـــبحث والنظر كغيرها من الكلام العادي، لهذا «سُمي أهل البدع أهل الأهـــواء؛ لأنهـــم اتبعوا أهوائهم»[1]. وهكذا انقضت القرون المفضلة ومضت الأحـــداث والـــسنون وبـــدأ الكـــلام وتنظيره والاعتراف به على أيدي أوائل المعتـــزلة لأنهم أول من خاض في تلك المسائل زمن عمرو بن عبيد وواصل بـــن عطـــاء , وعرفوا عند السلف بأهل «الكلام» وكانت حجتهم الدفاع عن الإســـلام إلا أنهم لم يستخدموا أدلة الشرع بل أحدثوا أدلة وطرقاً ظنوها عقلية فأســـاؤوا أكثـــر مما أحسنوا وأصبحوا «كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شـــرعي فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده، بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه»[2].

ومع أن تلك المسائل التي أثيرت والطرق التي أحدثت لم تطرح للنظر والمناقشة والبحث فقط بل واجهها علماء السلف بحزم وقوة حجة وحذروا من أصحابها وبدعوهم وبدعوا طريقتهم ونهوا عن مجالستهم لما في طريقتهم من

---

(١) ينظر الاعتصام للشاطبي ١٠٢/٢، ١٠٣، تحقيق رشيد رضا، ط سنة ١٩٧٠م.

(٢) ينظر شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص ٥٧-٦٣.

الـباطل، يقـول ابن تيمية: « ذم السلف والأئمة أهل الكلام المحدث المخالف للكـتاب والـسنة، إذ كان فيه من الباطل في الأدلة والأحكام ما أوجب تكذيب بعـض ما أخبر به الرسول ﷺ وتسلط العدو على أهل الإسلام»[1]. وقال ابن قتيبة «.. صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعـرض والبوهـر.. وقادهم الهوى بزمام الردى»[2]. فأنت ترى أن عيب السلف لهذا العلم لما جره على المسلمين من مفاسد وإقحام العقل فيما لا يمكن إدراكه بواسطته، وإقحامه في لجج لا قيل له بها وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وعلـى أي حال، فإن علم الكلام قد مر بمراحل ولم يظهر في عصر الصحابة رضي الله عنهم وممن جاء بعدهم من التابعين، ثم جاءت مرحلة النظر العقلي وصـياغة العقـيدة بطريقة فلسفية حتى جاءت مرحلة أعترف فيها بعلم الكلام وأهلـه وعُظموا لدى بعض الحكام والأمراء كما في عهد المأمون وظهر ذلك جلـياً فـي القـرن الـرابع الهجري على أيدي الأشعرية ومبالغة أبي الحسن الأشعري (٣٢٤هـ) في رده على المعتزلة حتى قيل إنه أقام للاستدلال العقلي مكانـة في دائرة الفكر الديني الأمر الذي سهل على من أتى بعده من تلامذته واتباع منهجه في تطوير هذا الجانب من الفكر الإسلامي[3].

ومـن ثـم فقد أصبح علم الكلام علماً قائماً بين المسلمين وانقسم الناس تجاهه إلى مجوزين ومانعين ولكل فريق أدلته ووجهة نظره والذي يظهر «أن هناك فرقاً بين علم الكلام من حيث موضوعه وما يتضمنه من مسائل قد جاء

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣.

(٢) الاخـتلاف فـي اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ضمن عقائد السلف، للنشار والطالبي ص٢٢٤، منشأة المعارف، مصر ١٩٧١م.

(٣) ينظـر فـي ذلـك رسـالة التوحـيد ص ١٧-١٨ للإمام محمد عبده ودراسات في الفرق ص ١٤٩، عـرفان عبدالحميد وأما الشهرستاني منذ ذكر في الملل ص ٩٣ أن ذلك صار مذهباً لأهل السنة والجماعة، وهذا فيه نظروا اختلاف ليس هذا محلة الحجر ص ١٣٨.

بها الشرع ونبه على أنها أصول الدين، وبين الأدلة التي وضعها لتلك القضايا والمسائل، فالكراهة والذم إنما تتجه إلى تلك الأدلة الكلامية لا إلى المسائل التي اعتبرها الشرع أصولاً للدين. يقول ابن الوزير اليماني ت ٨٤٠هـ «وليس القصد بهذا إنكار صحة العلم، فإن فيه ما يعلم صحته بالضرورة، وإنما فيه إنكار اعتماد الأنبياء ومن عاصرهم من المؤمنين على أدلة الكلام الملخصة وبيان أن الذي كانوا عليه يكفي المسلمين»[١]. فليس لمجرد إعمال العقل أنكره من أنكره ورده من رده بل لما يترتب عليه من الشك والحيرة والتناقض وعدم إحترام النصوص الشرعية[٢] فالعلماء الذين كرهوه وبدعوا أهله ليس لمجرد النظر والبحث وإعمال العقل في حدوده، بل لما أسسوا طريقته عليه من وجوب النظر أولاً المؤدي إلى المعرفة والانقطاع عن اتباع النبي ﷺ وصحابته والتابعين[٣].

وفي هذا البحث سنرى أن السلف لم يعارضوا علم الكلام لمجرد النظر والاستدلال ولكن المعارضة اتجهت إلى الأساليب الكلامية المستقاة من الفلسفات المختلفة، وكان الأحرى الإحالة إلى الأدلة الشرعية وفي مقدمتها القرآن الكريم لأنه اتجه في خطابه للإنسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه وإيقاظ قلبه من الغفلة والجمود، وما يعقلها إلا العالمون الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم.

وإذا كان علم الكلام في العصور السابقة قد أدى دوراً ما فإنه في هذه الآونة أصبح حبيس الكتب وقاعات الدرس وعند الخاصة، ونحن بحاجة إلى

---

(١) ابن الوزير اليماني ومنهجه الكلام د.رزق الحجر، ص ١٣٨.

(٢) ينظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/٩٥، ٩٦) والفرقان ضمن الفتوى ١٣/١٧٥، وانظر نقض المنطق ص ٢٥، ٢٦.الصواعق لابن القيم ٤/١٢٥٩، بتحقيق علي دخيل الله.

(٣) ينظر صون المنطق للسيوطي ص ١٧٠، ١٨٠، مقدمة ابن خلدون وابن الوزير اليماني، برهان القاطع ص٥٥.

أســـاليب فـــي الدعـــوة والدفاع عن الدين "وحراسة العقيدة" بما يناسب تفكير وحجـــاج الخـــصوم بأسلوب عصري يعتمد أول ما يعتمد على أسلوب القرآن الكـــريم ومـــنهج رسوله ﷺ في الدعوة وإظهار محاسن هذا الدين من خلالهما بأسلوب علمي.

وسلاح هذا العصر هو العلم التجريبي والكشف عن حقائق الكون وفي القـــرآن غنـــية وعجائـــب لا تنقضى على مر الدهور فإذا استطاع المسلمون الولـــوج من هذا الباب كان فتحاً عظيماً على الناس وهداية لهم، لا سيما وأن العقـــل البشري أصبح عاجزاً وكالاً عن الكشوف الهائلة ما بين الذرة والمجرة فجثا أمام تلك الحقائق، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها وذكر رسول الله ﷺ طـــرفاً آخـــر مـــنها وهي تسند العلم الشرعي ولا تعارضه بل تعضده وتقويه ويعرف ذلك من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد والله الهادي إلى سواء السبيل.

وقد جعلت هذا البحث في مقدمة وستة مباحث وخاتمة.

المقدمة في أهمية الموضوع.

المبحث الأول: مفهوم علم الكلام.

المبحث الثاني: أسماء علم الكلام.

المبحث الثالث: نشأة علم الكلام.

المبحث الرابع: عوامل نشأة علم الكلام.

المبحث الخامس: موضوعات علم الكلام.

المبحث السادس: موقف السلف من علم الكلام.

الخاتمة في أهم النتائج وبعض المقترحات.

المبحث الأول

مفهوم علم الكـــلام

تعـــددت آراء المتكلمـــين والباحثين وتباينت عباراتهم في تعريف علم الكلام وذلك لاختلاف آرائهم وتباين وجهات نظرهم تجاه هذا العلم، ومن أبرز تلك التعريفات وأشهرها ما يلي:

أولاً: تعريف الفلاسفة:

من أقدم من رأيت أنه عرَّف علم الكلام من الفلاسفة (أبو نصر الفارابي ت ٣٣٩) حـــيث قـــال: « وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعـــال المحمودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويـــل، وهذه الصناعة تنقسم إلى جزأين أيضاً: جزء في الآراء وجزء في الأفعـــال، وهـــي غيـــر الفقه؛ لأن الفقيه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضـــع الملـــة مـــسلمة ويجعلها أصولاً، فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها، والمـــتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولاً من غير أن يستنبط عنها أشياءً أخرى، فإذا اتفق أن يكون لإنسان ما قدرة على الأمرين جميعاً فهو فقيه متكلم، فتكون نصرته لها بما هو متكلم، واستنباطه منها بما هو فقيه»[1].

ثانياً: تعريف المتكلمين:

وقـــد اخـــتلف المـــتكلمون في تعريفهم لهذا العلم، ويمكن القول بأنهم انتظموا في ثلاث طوائف:

١- طائفة عرفته باعتبار الغاية التي من أجلها نشأ علم الكلام وهي الدفاع عن العقائـــد الدينـــية والـــرد على أهل البدع وكشف تلبيساتهم. يقول ابن خلدون (ت٨٠٨هـــ):«علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة

---

(١) إحصاء العلوم للفارابي ص ١٠٧-١٠٨.

العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[1].

ويقــول أيضاً:« والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضــات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم»[2].

وابن خلدون في قوله هذا يوافق ما ذهب إليه الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في المنقذ من الضلال حيث قال: «... وإنما مقصوده (علم الكلام) حفظ عقيدة أهل الــسنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لــسان رســولهﷺ عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للــسنة فلهجــوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفــة المتكلمــين، وحــرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيــسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله»[3]. وهذه الطائفة جعلته علماً خاصاً بأهل السنة فقط؟

٢- طائفــة جعلــته عاماً بحيث يشمل كلام جميع الفرق المنتسبة إلى الإسلام سواء كان كلاماً حقاً أم باطلاً.

قــال البيــضاوي: (ت ٦٨٥هـ) « علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنه»[4].

ويؤكد قوله عضد الدين الإيجي (ت ٧٥٦هـ) في كتاب المواقف حيث قــال: « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع

---

(١) المقدمة ص ٤٣٣.

(٢) نفس المرجع ص ٤٦٩.

(٣) المنقذ من الضلال للغزالي ص ١٤.

(٤) طوالع الأنوار في علم الكلام ص ٧٩.

الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام»[1].

وقال التفتازاني (ت ٧٩١هـ) شارحاً لتعريف الإيجي: « وهذا هو معنى العقائد الدينية، أي المنسوبة إلى محمد ﷺ سواء توقف على الشرح أم لا، وسواء أكان من الدين في الواقع ككلام أهل الحق لا ككلام المخالفين»[2].

وقال التهانوني: (ت بعد ١١٥٨هـ) « والمراد بالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ سواء كانت صواباً أو خطأ فلا يخرج علم أهل البدع الذي يقتدر معه على إثبات عقائدهم الباطلة من علم الكلام»[3].

وقال الجاحظ: (ت ٢٥٦هـ) «والمتكلم اسم يشتمل على ما بين الأزرقي والغالي وعلى من دونهما من الخارجي والرافضي، بل على جميع الشيعة وأصناف المعتزلة، بل على جميع المرجئة وأهل المذاهب الشاذة»[4].

٣- طائفة عرّفته بأبرز مباحثه وموضوعاته التي يتناولها. قال الشريف الجرجاني: (ت٨١٦هـ) « الكلام علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات في المبدأ أو المعاد على قانون الإسلام...الكلام علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد، وما يتعلق به من الجنة والنار والصراط والميزان، والثواب والعقاب»[5].

وينهج نهجه الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) فيقول في رسالة التوحيد: «علم يبحث عن وجود الله تعالى وما يجب أن يثبت له من صفاته وما

---

(١) المواقف للإيجي ص ٣٤.

(٢) شرح المقاصد للتفتازاني ص ٦.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ص ٤٣.

(٤) الفصول المختارة على هامش الكامل للمبرد ٢٤٦/٢.

(٥) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبدالرزاق ص ٣٦٢.

يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم»[١].

وإذا تأملنا التعريفات السابقة لاحظنا ما يلي:

أولاً: تعريف الفارابي:

ونلاحظ عليه ما يلي:

أ – أن الفارابي يسوي بين علم الكلام وعلم الفقه من حيث الموضوع ويفرق بينهما باعتبار الغاية، فكلاهما يبحث في الآراء والأفعال المحدودة – أي الأحكام الاعتقادية والأحكام العملية – التي صرح بها واضع الملة، فإن كانت الغاية استنباط أحكام جديدة من الأحكام الأصلية سمي فقهاً. وإن كانت الغاية تأييد الأحكام الأصلية ونصرتها ببراهين جديدة أو رد شبهات الخصوم عنها سمي كلاماً.وهذا التفريق بين علم الكلام وعلم الفقه لم يعرف عن أحد من العلماء في الإسلام بل أنهم يكادون يجمعون على أن علم الكلام متعلق بالمسائل الاعتقادية وأن علم الفقه متعلق بالأحكام العملية[٢].

ب – نجد أن الفارابي لم يقصد في تعريفه هذا علم الكلام في الإسلام والتفريق بينه وبين الفقه على مصطلح علماء المسلمين، وإنما قصد الكلام في العلوم الدينية جملة والتي تنشأ في ظل أي دين أو نظام عقائدي وهو المراد بلفظ «الملة» هنا[٣].

---

(١) رسالة التوحيد لمحمد عبده ص ٤.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية – مصطفى عبدالرزاق ص ٢٥٧.

(٣) المدخل إلى دراسة علم الكلام ص ١٦.

ثانياً: تعريف ابن خلدون والغزالي:

ويلاحظ أنهما حصرا علم الكلام في نصرة الاعتقادات الصحيحة الموافقة لمذهب السلف وأخرجا باقي الفرق المخالفة لمذهب السلف من علم الكلام.

وهذا مخالف للواقع، حيث أن علم الكلام في الإسلام نشأ وترعرع على يد أهل الاعتزال والتشيع. كما أن الكلام جمع فرقاً ومذاهب كثيرة لم تقصد حراسة عقيدة أهل السنة من تشكيكات أهل البدعة[1]. وقد أشار ابن خلدون في تعريفه إلى أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام وعلماء الحديث والسنة[2].

ثالثاً: تعريف البيضاوي والإيجي والتفتازاني والتهانوني:

وهذا التعريف يدخل ضمن عقائد جميع الفرق المنتسبة للإسلام في علم الكلام، فكل من يثبت عقيدة دينية منسوبة للإسلام أو يدافع عن عقيدة باطلة بالأدلة العقلية فإنه يدخل في علم الكلام[3].

رابعاً: أما الشريف الجرجاني والشيخ محمد عبده:

فإنهما قد عرفا هذا العلم بأبرز مباحثه وأهم موضوعاته، إلا أنهما لم يدخلا الدفاع عن العقيدة والرد على الخصوم في إطار علم الكلام. كما أن الشيخ محمد عبده أغفل مبحثاً هاماً وهو مبحث السمعيات. وهي الأمور الغيبية.

ونستطيع أن نقول: أن علم الكلام هو: علم يقصد منه إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية لأجل البرهنة عليها إثباتاً لصحتها ودفع الشبه عنها.

---

(١) الفرق الكلامية الإسلامية ص ١١، ومدخل نقدي لدراسة علم الكلام ص ١٠-١١، والمدخل إلى دراسة علم الكلام ص ١٨.

(٢) ينظر: قواعد المنهج السلفي، لمصطفى حلمي، ص ٧٦.

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٦٢، والمدخل إلى دراسة علم الكلام ص ١٨.

ويتـــضمن الرد والدفاع عن مسائل العقيدة بتلك الأدلة[1]، ولكنه اختلط – فيما بعـــد – علـــم الكلام بالفلسفة «فالتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنيين عن الآخر، ولا يحصل عليه طالبه»[2]. والله أعلم.

---

(١) ينظـــر فـــي تعـــريف علم الكلام على سبيل المثال حواشي العقائد النفسية ٢/٧٥، مذاهب الإسلاميين ١/٧-٩، لوامع الأنوار البهية ١/٤، ٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٣٧.

المبحث الثاني

أسماء علم الكلام وألقابـــــــه

أطلق المتكلمون على علم الكلام أسماءً وألقاباً متعددة أبرزها:

١- الفقـــه الأكبـــر:

وهو من أقدم أسماء هذا العلم، وتنسب هذه التسمية إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت في منتصف القرن الثاني الهجري. (ت ١٥٠هـ).

وسُـمي بالفقه الأكبر بالنسبة للفقه الأصغر، حيث يختص الفقه الأكبر بالأحكام الشرعية الاعتقادية، أما الفقه الأصغر فيختص بالأحكام العملية، كما أن شـرف العلـم بحـسب المعلوم ولا معلوم أكبر من ذات الله وصفاته الذي يبحث فيه هذا العلم، ولذا سمي الفقه الأكبر[١].

قـال أبو حنيفة رحمه الله: « اعلم أن الفقه في أصول الدين أفضل من الفقه في فروع الأحكام، والفقه العام لهما هو معرفة النفس جميع ما يصح لها مـن الاعتقاديات والعمليات وما يجب عليها منها، وما يتعلق منها الاعتقاديات هو الفقه الأكبر»[٢].

٢- العقيدة أو العقائد:

والعقائـد جمع عقيدة. والعقيدة هي: ما يعقد عليه المرء قلبه ويدين به، واعـتقدت كـذا: عقدت عليه الضمير والقلب ويستعمل في التعميم والاعتقاد الجازم فهو يطلق على التصديق مطلقاً وعلى ما يدين به الإنسان ربه ويعتقده من أمور الدين. فكل اعتقاد جازم مطابق للواقع يسمى عقيدة، فإذا لم يصل إلى درجـة اليقـين لم يكن عقيدة. فإن كان مطابقاً للواقع والحق الثابت وقام على الدليل سمي عقيدة صحيحة وما سوى ذلك يسمى عقيدة فاسدة[٣].

---

(١) كشف الأسرار على أصول البزدوي ١/٨.

(٢) نقله عنه البياضي في إشارات المرام ص ٢٨-٣٠.

(٣) المدخل إلى العقيدة الإسلامية، ص ١٢١.

وقـد شـاع اسـتخدام أهل الكلام لهذا المصطلح كالغزالي في (قواعد العقائد) ونصير الطوسي (ت٦٧١هـ) في (تجريد العقائد) و (قواعد العقائد) والمجلسي (ت١١١١هـ) في (رسالة في العقائد).

وقد يستخدمون هذا المصطلح مضافاً إلى اسم أحد أئمتهم أو فرقتهم أو مذهـبهم فيجعله عنواناً لكتاب يجمع فيه عقائد الفرقة التي ينتمي إليها كما فعل أبو جعفر القمي (ت ٣٨١هـ) في كتاب (عقائد الصدوق) وعضد الدين الإيجي فـي كتاب (العقائد العضدية) ومحمد رضا المظفر في (عقائد الإمامية) ومحمد بن محمد النسفي ت (٥٣٧هـ) في (العقيدة النسفية) [١].

٣- علم النظر والاستدلال:

وفـي هـذه التسمية إشارة إلى استخدام المنهج العقلي في الكلام. فهو يـدرس مـنهج علم الكلام ونظرية المعرفة ومصادر الاستدلال المقبولة لدى المتكلمين.

وقـد كـان هذا الاسم يختص بمقدمات كتب علم الكلام التي ألفت في القرون الأولى، إلا أن هذه المقدمة اتسعت لدى متأخري المتكلمين فغلبت على العلم كله من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل[٢].

وممـن أطلـق هـذه التـسمية على علم الكلام التهانوني في (كشاف اصـطلاحات الفنون) نقلاً عن (مجمع السلوك) [٣] وذكره التفتازاني في مقدمة شرحه للعقائد النسفية والدكتور محمد يوسف موسى في الطبعة العربية لدائرة المعـارف الإسلامية تحت مادة (التوحيد) [٤]. وفي هذه التسمية إشارة واضحة إلى المنهج الذي يعتمده في عرض العقائد من الجدل والمناظرة.

---

(١) ينظر في ذلك المدخل إلى دراسة علم الكلام لحسن الشافعي ص ٣٠.

(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام لحسن الشافعي، ص ٣٢.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٣٠.

(٤) نقله محمد السنهوتي في مدخل نقدي لدراسة علم الكلام ص ١٧.

٤- التوحيد:

وأقدم من أطلق هذه التسمية على علم الكلام هو أبو جفر القمي المتوفي سنة ٣٨١هـ، حيث سمى أهم مصنفاته في المسائل الاعتقادية (كتاب التوحيد) [١].

وممن أطلق هذا الاسم على كتب علم الكلام المقريزي ت (٨٤٥هـ) في كتابه (تجريد التوحيد) والقاسمي ت (١٣٣٢هـ) في (دلائل التوحيد) وتلميذه حسين والي في (كتاب التوحيد) ومحمد عبده في (رسالة التوحيد) وعلي حسب الله في (محاضرات في علم التوحيد) وفي الطبعة العربية لدائرة المعارف الإسلامية كتب الدكتور محمد يوسف موسى عن علم الكلام بحثاً تحت مادة (التوحيد) [٢].

ويميل بعض علماء الكلام إلى تسميته بعلم التوحيد والصفات كما فعل التفتازاني في مقدمة (شرح العقائد النفسية)، لأن هذه التسمية كما ذكر: «تبين أن البحث حول الذات الإلهية وما يتعلق بها من الصفات والأفعال هو أهم مقاصد علم الكلام أو كل مقصوده عند البعض، والصفات الإلهية أهم تلك المباحث وحولها اختلفت آراء المتكلمين إثباتاً أو تعطيلاً، وتحقيقاً أو تأويلاً... ولأهمية التوحيد بين تلك الصفات الإلهية خص بالذكر معها من قبيل ذكر الخاص مع العام فقيل: علم التوحيد والصفات»[٣].

وإطلاق اسم التوحيد على علم الكلام غير مسلم البته، فهذه التسمية لم ترد في الأدلة السمعية ولم تؤثر عن أحد من السلف رضوان الله عليهم. وإن كان معظم مسائل تدور حول قضايا التوحيد.

---

(١) مدخل نقدي لدراسة علم الكلام للسنهوتي، ص ١٥.

(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام لحسن الشافعي ص ٣١.

(٣) العقائد النفسية ص ٤.

كمـــا أن أصـــل التوحيد الوحي المعصوم من الكتاب والسنة، أما علم الكـــلام فأصـــله الاستدلال العقلي والفلسفات الوثنية، كما أن المتكلمين أدخلوا تحـــت مـــسمى التوحيد كثيراً من المسائل والاستدلالات الباطلة، وأدخلوا في التوحيد ما ليس منه؛ فبعضهم جعل التوحيد هو نفي الصفات وآخرون حصروه في توحيد الربوبية والبعض الآخر قسمه ثلاثة أقسام، فيقول: توحيد الله تعالى يعني أنه تعالى واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد فـــي أفعالـــه لا شريك له. وتوحيدهم هذا فيه حق وأكثره مخالف للتوحيد الذي جـــاء بـــه محمد ﷺ، فتسمية علم الكلام بالتوحيد باطلة[1]. وأيضاً فإن حصر التوحيد في هذه الأقسام هو تقسيم لنوع واحد هو توحيد الربوبية. وهو لا يزيد عمـــا أقـــر به مشركوا العرب من قبل كما قال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق الـــسموات والأرض لـــيقولن الله) وترك لنوعين هامين هما الألوهية والأسماء والصفات.

٥- <u>أصول الدين:</u>

وســـمي بهـــذا الاسم لأن موضوعه يتناول أصول الدين وهي الأحكام الاعـــتقادية كالإيمـــان بالله تعالى ووحدانيته وصفاته وأفعاله والإيمان بالوحي وإرســـال الله تعالى للرسل والإيمان بالبعث والثواب والعقاب في الآخرة، أما الفروع فهي الأحكام العملية[2].

---

(١) المـــدخل لدراســـة العقـــيدة الإســـلامية – عثمان ضميرية ص ١٠٧ ومقدمات في الاعتقاد للقفاري ص١٠.

(٢) الفـــرق الكلامـــية الإسلامية. د. علي المغربي ص ١٠٥، والمدخل إلى دراسة علم الكلام، ص ٢٩.

وذهب بعضهم إلى أن أصول الدين اسم لكل ما تتفق فيه الشرائع مما لا يتبدل بالنسخ ولا يتغير سواءً كان علمياً أو عملياً، فيجعل عبادة الله وحده ومحبته وخشيته ونحو ذلك من أصول الدين[1].

وقد عرَّف بعضهم علم أصول الدين فقال: علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج لها ودفع الشبه عنها[2].

وممن أطلق هذه التسمية على علم الكلام عبدالكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) حيث قال: «... فالأصول هو موضوع علم الكلام والفروع هو موضوع علم الفقه»[3]. وأبو اليسر البزدوي (ت ٤٩٣هـ) في كتابه (أصول الدين) والجويني ت (٤٧٨هـ) في (الشامل في أصول الدين) وابن المطهر الحلي (ت ٧٢٦هـ) في (مناهج اليقين في أصول الدين).

وينبغي أن يعلم أن هذه التسمية أي تقسيم الدين إلى أصول وفروع أمر محدث لم يكن في عصر السلف الصالح ولا ينضبط بحد محدود كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كما سبقت الإشارة إليه.

كما أن علماء الكلام أدخلوا كثيراً من الباطل تحت مسمى أصول الدين كالمسائل والدلائل الفاسدة مثل نفي الصفات والقدر ونحو ذلك. ومثل الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض التي هي صفات الأجسام القائمة بها وتقرير المقدمات التي يحتاج إليها هذا الدليل.

ومما يعلم بالضرورة أن محمداً ﷺ لم يدعو الناس بهذه الطريقة إلى الإقرار بالخالق ونبوءة أنبيائه. ولهذا فقد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري (ت ٣٢٤هـ) وغيره بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم، بل المحققون على أنها طريقة باطلة.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣٤/١٩.

(٢) أبجد العلوم لصديق خان ٦٧/٣ ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ١٣٢/٢.

(٣) الملل والنحل ص ٤١.

وإذا عـرف أن إطـلاق مسمى أصول الدين في عرف الناطقين بهذا الاسم على علم الكلام فيه: إجمال وإيهام لما فيه من الاشتراك بحسب الأوضاع والاصـطلاحات تبـين أن الذي هو عند الله ورسوله وعباده المؤمنين أصول الدين موروث عن الرسول ﷺ.

وأمـا من شرع ديناً لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة من النبي ﷺ، إذ هو باطل، وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق[1].

٦- علم الكلام:

وهـذه التسمية أشهر أسماء هذا العلم، وقد ذكر أهل الكلام عدة أسباب لتسميته بهذا الاسم وأهمها:

١- أن أشـهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي مسألة كلام الله تعالى هل هو حادث أو قديم وما يتعلق بها [2].

٢- أن عنوان مباحثه وأبوابه كان قولهم: الكلام في كذا وكذا [3].

٣- أن هـذا العلم إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب[4].

٤- لأنـه يـورث قـدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم كالمنطق في الفلسفيات[1].

---

(١) ينظر: درء التعارض ١/٣٨-٤١ ومجموع الفتاوى ٣/٣٠٣-٣٠٨ بتصرف يسير.

(٢) رسـالة التوحيد، محمد عبده، ص ٥، والملل والنحل ص ٤١، وقد رد ابن تيمية هذا القول لأن هـذا المـصطلح أطلقه السلف قبل الاختلاف في مسألة الكلام وكان يُسمى واصل بن عطـاء مـتكلماً ويـصفونه بـالكلام. ينظـر: مجموع الفتاوى ٣/١٨٤. وكتاب التوحيد لعبدالعزيز الربيعة.

(٣) شـرح المقاصـد ١/١٦٤-١٦٥. وهذا القول مردود بأن هذا المصطلح ظهر قبل استخدام أهل الكلام هذه الطريقة في التبويب.

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني ١/١٦٤-١٦٥.

٥- لابتنائه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية، فهو أشد العلوم تأثيراً في القلب وتغلغلاً فيه، فيسمى بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح[٢].

٦- أن هذا العلم فيه من الكلام مع المخالفين والرد عليهم أكثر مما في غيره من سائر العلوم، أو لأنه لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم كما يقال في الأقوى من الكلامين: هذا هو الكلام[٣].

٧- لأنه لا يفيد الجوارح إلا بالكلام، بخلاف الفقه فإنه يفيدها العمل مطلقاً[٤].

ولا شك أن في بعض هذه الأقوال من التكلف والضعف ما يوجب على الباحث أن يفرق بين ما يمكن أن يطلق على الكلام المذموم الباطل، وما يمكن أن يدعمه الدليل الشرعي فيكون مقبولا عند الحاجة إليه في مجادلة الخصوم الذين يجادلون به وأمثاله من الطرق العقلية تنزلاً معهم كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) هوامش العقائد النسفية ١/١٨-١٩.

(٢) هوامش العقائد النسفية ١/١٨-١٩.

(٣) شرح المقاصد للتفتازاني ١/١٦٤-١٦٥.

(٤) ينظر شرح المواقف ص ٨، ٩.

المبحث الثالث

نشأة علم الكـــــلام

بعث الله محمداً ﷺ إلى الناس كافة فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس وأكمـــل الله به الدين وأتم به النعمة ورضي لهم الإسلام ديناً. ومن ثم فقد بين لهـــم طريق النجاة وحذرهم من طريق الهلاك، ولم يكلهم لعقولهم الضعيفة ولا لآرائهـــم وأهـــوائهم وموروثات آبائهم وأجدادهم، بل بين لهم الدين أكمل بيان ووطـــد دعائمـــه وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد نص على كل ما يعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعذر[1]. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: من الآية ١١٥].

وشرط الإيمان بالتحاكم إلى الله ورسوله. قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾. [النساء: من الآية ٥٩].

معنى الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه ﷺ حال حياته وإلى سنته بعد مماته[2].

---

(١) درء التعارض ٧٣/١.

(٢) وهـــو تفـــسير مجاهد وعطاء بن أبي رباح وغير واحد من السلف. ينظر: تفسير ابن كثير ٥١٨/١.

قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) رحمه الله: « وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء يتنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة»[١].

كما أمر ﷺ بالاعتصام بالقرآن والسنة فقال: « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه»[٢].

وقال ﷺ: «... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[٣].

كما حذر ﷺ من كل ما يؤدي إلى الانحراف عن المنهج القويم. فنهى ﷺ عن الجدل في الدين لأنه من أسباب الفرقة والخلاف فقال: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[٤].

وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٩١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٧١) كتاب العلم رقم (٣١٨).

(٣) أخرجه الإمام مسلم، صلاة المسافرين – باب الدعاء في صلاة الليل – (حديث ٢٠٠) ١/٥٣٤.

(٤) رواه أحمد ٥/٢٥٢.

﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. قالت: قال رسول الله ﷺ: « فإذا رأيت الذين يبتغون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١).

وقد امتثل الصحابة رضوان الله عليهم لأمر رسول الله ﷺ وانتهوا عما نهاهم عنه، فكانت تتـــنـــزل الآيات القرآنية فيؤمنوا بها كما أنزلت، ولم تكن هذه الآيات تثير في الصحابة أي بحث أو جدال، ولم يروا فيها أي تناقض يحتاج إلى التوثيق، فظل إيمانهم قوياً وعقيدتهم راسخة، ولا عجب فقد (أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام) (٢).

قال ابن القيم: (ت ٧٥١هـ): « قد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأئمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً»(٣).

وقال عنهم الغزالي: « إنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة الرسول محمد ﷺ وإلى إثبات الإلهية مع عبدة الأصنام وإلى إثبات البعث مع منكريه ما زادوا في هذه القواعد التي هي أمهات العقائد على أدلة القرآن... وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طرق المجادلة»(٤).

---

(١) أخـــرجه الإمـــام البخاري في كتاب التفسير: سورة آل عمران، برقم ٤٥٤٧، ومسلم كتاب العلـــم برقم ٢٦٦٥ كلاهما عن القنعبي ورواه غيرهما. وقد استوفى طرفة الهروي في ذم الكلام ١/١٧٤ وما بعدها.

(٢) مفتاح السعادة ٢/٢٦٢.

(٣) إعلام الموقعين ١/٤٩.

(٤) إلجام العوام عن علم الكلام ص ٣٠.

وعندما كادت بذور الكلام المذموم والجدل في الدين أن تظهر، استأصلها رسول الله ﷺ وحذر أمته منها وذلك كما روى أحمد عن رسول الله ﷺ: خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال: فقال لهم: « ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[1].

وقد امتثلوا رضوان الله عليهم لأمره ﷺ ولم يعرف عن أحد منهم أنه أثار جدلاً أو بحث في القدر أو غيره من مباحث العقيدة بعد ذلك. بل إنهم عندما ظهرت القدرية بعد ذلك ردوا عليهم وبدعوهم وضللوهم وتبرأوا منهم.

وهكذا ظل الصحابة رضوان الله عليهم يهتدون بهدي رسول الله ﷺ ويسيرون على نهجه حتى بعد وفاته، وحين ظهرت بعض بوادر الخلاف بينهم فإنهم سرعان ما قضوا عليها ولم تورث بينهم تضليلاً ولا تفسيقاً كاختلافهم في موضع دفنه ﷺ واختلافهم في الإمامة وقتال مانعي الزكاة ونحو ذلك.

ولقد كان عصر الخلفاء الراشدين على غرار عصر النبوة من حيث انقياد المسلمين لكل ما ورد في الكتاب والسنة وترك الخوض فيما نهوا عنه والجدال فيما لا علم لهم به.

ومع أنه ظهرت من غيرهم في زمنهم رضي الله عنهم بعض الحالات الفردية إلا أنها لم تجد رواجاً ولا قبولاً في نفوس المسلمين، بل وئدت في مهدها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١٧٨/٢، وابن ماجه في سننه المقدمة (باب في القدر) ٣٣/١. قال الألباني في صحيح ابن ماجه ٢١/١: حسن صحيح.

ومن ذلك قصة صبيغ بن عسل[1] المشهورة الذي أخذ يثير أسئلة حول بعض الآيات المتشابهات في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فجلده عمر وكرر عليه الجلد حتى تاب وحسنت توبته.

وروي أن عمر ﷺ أتى إليه بسارق فقال له: ما حملك على السرقة ؟ فقال: قضاء الله وقدره، فقطع عمر يده وضربه ثلاثين سوطاً، فقيل له في ذلك، فقال أمير المؤمنين: القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله تعالى[2].

إلا أنه بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين وبعد العهد بعصر النبوة وموت كثير من الصحابة رضوان الله عليهم واتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاطها بكثير من الأمم والشعوب الذين اعتنقوا الإسلام ولم يتخلصوا تماماً من معتقداتهم السابقة وجهل كثير من المسلمين بدينهم ودخول بعض المنافقين الذين ما فتأوا يكيدون للإسلام الدسائس والمؤامرات، بدأت البذور الأولى لعلم الكلام، حيث بدأ الخوض في القدر والاستطاعة، وكان ذلك في أواخر زمن الصحابة، وأول من أظهر ذلك معبد الجهني قتل سنة ٨٠هـ، وغيلان الدمشقي، قتل سنة ١٠٥هـ. وقد تبرأ منهم الصحابة المعاصرون لهم كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ونهوا عن مجالستهم، ثم بدأ نفي صفات الله عز وجل، وأول من أظهر هذه المقولة الجعد بن درهم وقد قتل سنة ١٢٤هـ وكان قد تتلمذ على يديه الجهم بن صفوان. قتل سنة ١٢٨هـ. الذي نسبت إليه الجهمية فيما بعد.

---

(١) هـو: صبيغ بن عسل بن سهل الحنظلي، له إدراك أي ببعض الصحابة، ينظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ١٩٨/٢-١٩٩.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي هريرة، ١١٧/١.

وفي هذه الحقبة بدأت تنتشر مقولة الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة. كما ظهرت فرقة المرجئة الذين أخروا العمل عن الإيمان، واتسمت هذه الحقبة بأن بذور الافتراق نشأت فيها.

ويتضح مما سبق أن بذور الكلام المذموم بدأت متفرقة على أيدي أفراد معدودين ولم تنتشر أو تستقر، بل وقف لها الصحابة والتابعون بقوة وحزم فدفنت في مهدها إلى أن ظهر الاعتزال على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد « وتضخم بعدهما المذهب إذ جمع ما تناثر من الأقوال الآنفة في شكل نسق شبه فلسفي متضمناً الأصول الخمسة عند المعتزلة»(١).

قال السفاريني: (ت ١١٨٩هـ) «وكان أول من صنف في علم الكلام والجدال والخصام مع أهل السنة والجماعة واصل بن عطاء وهو رئيس المعتزلة»(٢).

وقال طاش كبرى زاده: « اعلم أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء، وكانت وفاته في سنة إحدى وثلاثين ومائة (١٣١هـ) وولادته في سنة ثمانين (٨٠هـ) فيصير زمن طلبه وقدرته على الاجتهاد في حدود المائة تقريباً»(٣).

والصحيح أنه بدأ في أوائل القرن الثاني ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله: «بعد موت الحسن البصري [ت ١١٠هـ] وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال»(٤). وصار لهم من الكلام المحدث ما خرجوا إلى تفكر أوقعهم في تحير. وذكر المقريزي

---

(١) منهج علماء الحديث لمصطفى حلمي ص ٥٧.

(٢) شرح عقيدة السفاريني ص ١٠.

(٣) مفتاح السعادة ٢/٣٧.

(٤) الفتاوى لابن تيمية، ١٠/٣٥٨ وما بعدها. ينظر كلام ابن تيمية للتوسع في ذلك.

(ت ٨٤٥هـ) أن واصل بن عطاء ألف كتاب التوحيد وكتاب المنـزلة بين المنـزلتين وكتاب الفتيا وكلها في علم الكلام.

وبذلك بدأت مرحلة التدوين لمسائل علم الكلام إلا أنه لم يعين شيئاً من مؤلفات هذه المرحلة.

ومع اختلاط المسلمين بغيرهم من اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الديانات وتعريب كتب المنطق والفلسفة اليونانية دخلت المباحث الفلسفية والقواعد المنطقية إلى علم الكلام واصطبغ علم الكلام بصبغة فلسفية، فصار كما يقال «ضغثاً على إبالة»[١]. وظهرت المؤلفات في علم الكلام، فروي أن عمرو بن عبيد المعتزلي [ت ١٤٢هـ] ألف كتاباً في الرد على القدرية الجبرية وألف هشام بن الحكم الشيعي كتاباً في الرد على المعتزلة كما ألف متكلموا الجبرية ومتكلموا الخوارج كتباً في الانتصار لمذهبهم والرد على خصومهم. وقد ذكرها ابن النديم في كتاب الفهرست[٢]. ولم يقف علماء السلف تجاه هؤلاء المتكلمة بل ردوا عليهم كالإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر و(العالم والمتعلم)، وغيره من علماء السلف في تلك الفترة سواء بمجادلة المخالفين بالتآليف أو بالمناظرة والجدل عند الحاجة، مما أظهر قدرة أئمة السلف على دحض حجج المخالفين ورد باطلهم بالأدلة الشرعية والعقلية مما يدل على حسن التصرف وضرب كل بسلاحه.

---

(١) الضغث بكسر الضاد قبضة الحشيش مختلطة رطب ويابس. والإبالة: بكسر الهمزة الحزمة من الحطب. ينظر: لسان العرب ٦/١١.

(٢) ينظر: الفهرست ص ٥٠.

المبحث الرابع
عوامل نشأة علم الكـــــلام

١- حركة الترجمة:

حركة الترجمة أهم العوامل التي أدت إلى نشأة علم الكلام في الإسلام إن لم تكن أهمها، حيث أثرت في بعض المسلمين الذين افتتنوا وتأثروا بها منهجاً وموضوعاً، وحاولوا تفسير القرآن والنصوص الشرعية والأحاديث في ضوئها وعلى منهجها، فأفرزت مباحث فلسفية ومنطقية غريبة عن القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح.

وقد بدأت حركة ترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة العربية على يد خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٩٠هـ) وكان محباً للعلوم، حيث أمر بإحضار جماعة من فلاسفة البونانيين ممن كان ينـزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، فأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي، وكان هذا أول نقل في الإسلام كما يقول ابن النديم[١].

ثم بدأت الترجمة تزداد شيئاً فشيئاً وبلغت قمة ازدهارها في عصر العباسيين لا سيما المأمون ت (٢٢٧هـ) والذي ارتبطت الترجمة باسمه.

وقد قسم بعض الباحثين المراحل التي مرت بالترجمة في هذا العصر إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

وتبدأ من خلافة المنصور (ت ١٥٨هـ) أي من سنة ١٣٦هـ إلى آخر عصر هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ.

وفي هذه المرحلة ترجمت بعض كتب أرسطو في المنطق.

ومن أشهر المترجمين في هذه الفترة: ابن المقفع، يوحنا بن ماسويه، جوجيس بن جبرائيل، والبطريق. والملاحظ أن هؤلاء على غير منهج السلف أو غير مسلمين أصلاً.

---

(١) الفهرست ص ٣٨٨.

المرحلة الثانية:

تبدأ من خلافة المأمون (ت ٢٢٧هـ) أي من سنة ١٩٨هـ إلى سنة ٣٠٠هـ.

وفي هذه المرحلة ترجمت أهم الكتب اليونانية في الفلسفة والمنطق لكتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وبعض كتب أفلاطون وشروحها.

ومن أشهر المترجمين في هذه الفترة: يوحنا أويجي، البطريق، وحنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين.

المرحلة الثالثة:

تبدأ من سنة ٣٠٠هـ إلى منتصف القرن الرابع الهجري.

وقد ترجمت في هذه المرحلة الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وتفسيرها للإسكندر الأفروديسي ويحيى النحوي وغيرهما.

ومن أشهر المترجمين في هذه الفترة: متى بن يونس، يحيى بن عدي وابنه زرعة، وسنان بن ثابت بن قرة.

وإذا تأملنا حركة الترجمة وجدنا ما يلي:

١- أن أكثر المترجمين كانوا منحرفي العقيدة، فهم ما بين زنديق حاقد أو نصراني متربص أو مرتزق متهالك[١].

٢- أن حركة الترجمة قد بدأت قبل عصر المأمون، إلا أنها ارتبطت باسمه وذلك يرجع إلى أحد أمرين:

الأول: أنه اهتم بتعريب كتب الأوائل أكثر من سابقيه، فشجع على الترجمة وأحضر الكتب اليونانية وبذل الأموال للنقلة والمترجمين فشجع على الترجمة وأنشأ لها داراً عرفت بدار الحكمة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس وانتشرت كتبهم لعامة الأمصار، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر والتصفح لها، فأنجر على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين[٢].

---

(١) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة – سليمان الغصن ١/٥٠.

(٢) ينظر: المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٥٧.

الثاني: أنه ترجم الكتب الخاصة بالإلهيات والأخلاق ونحو ذلك مما سموه بـ (ما وراء الطبيعة) [١]، وهذا ما لم يفعله من سبقوه وإنما اقتصروا على كتب الكيمياء والطب ونحو ذلك. وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ما أظن أن الله يغفل عن المأمون ولا بد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها»[٢].

وقد تعددت الروايات في كيفية دخول هذه الكتب إلى بلاد المسلمين كما نقله السيوطي عن الصلاح الصفدي [٣][٤].

والمراد أن هذه الترجمة جرت على المسلمين مفاسد عظيمة، فأفسدت عقائدهم وفرقت كلمتهم وحرفت دينهم وزادت أهل البدع ضلالاً على ضلالتهم والكفار كفراً على كفرهم.

٢-الاحتكاك المباشر بين المسلمين وبين أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة:

فبعد انتشار الفتوحات الإسلامية وامتداد حركة المد الإسلامي واتساع الدولة الإسلامية التي انضوى تحت لوائها كثير من الأمم والشعوب الذين ينتمون إلى أجناس وأعراق مختلفة ويدينون بأديان ومذاهب وفلسفات وعقائد متباينة ما بين يهودية ونصرانية ومجوسية وديصانية وماسونية وبراهمة وغيرها، ومع أنه دخل كثير منهم في الإسلام رغبة أو رهبة، إلا أن هذا الاحتكاك واللقاء المباشر بينهم وبين المسلمين أدى إلى تسرب عقائدهم إلى المسلمين، وأثير الجدل حول هذه المسائل، فبمجرد أن وصل الإسلام إلى هذه البلاد بدأت هذه العقائد تتنازعه نزاعاً فكرياً شديداً حيث كان أهل البلاد المفتوحة مسلحين بثقافات ذات خلفيات لاهوتية سواء نصرانية أو يهودية أو إغريقية أو فلسفية [٥].

---

(١) المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٦٣.

(٢) الغيث المسجم ٧٩/١.

(٣) ترجمته في طبقات الشافعية ٣٢/٥-١٠، البداية والنهاية ٣٠٣/١٤.

(٤) ينظر: صون المنطق، والكلام للسيوطي، ص ٨، ٩.

(٥) ينظر: العقيدة وعلم الكلام، د. محمود الخالدي ص ٣٦.

ومع أن كثيراً منهم دخل في الإسلام رغبة لكن لم يرسخ الإيمان في قلبه ولم يستطع التخلص من جميع رواسب وبقايا عقيدته السابقة، بل لا زال متأثراً بها وبمعتقداته وآرائه وتصوراته السابقة، بل وحتى أساليب الجدل التي تعلمها في دينه السابق ولم يستطع التخلص من المقارنة بين دينه الجديد وبين ما في نفسه من موروث الآباء والأجداد، فأخذوا يثيرون الجدل حولها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هؤلاء الأعاجم يجهلون اللغة العربية التي يفهم بها نصوص القرآن والسنة فيفتاتون على الشريعة حسبما فهموا أو يدينون به ويخالفون الراسخين في العلم، ويتأولون النصوص على غير وجهها. وكان الحسن (ت١١٠هـ) ﷺ يدرك خطورة ذلك فيقول محذراً: «أهلكتكم العجمة يتأولون القرآن على غير تأويله»، وقد أرجع الإمام الشافعي ظهور بعض المسائل الكلامية إلى العجمة كخلق القرآن ونفي الرؤية وغيرها [١].

وذكر الفريابي أن سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) إذا رأى النبط يكتبون العلم تغير وجهه فقال له: يا أبا عبدالله أراك إذا رأيت هؤلاء يكتبون العلم يشتد عليك قال: كان العلم في العرب وفي سادات الناس وإذا خرج عنهم وصار إلى هؤلاء النبط والسفلة غيّر الدين[٢].

وقد علق الشافعي فقال: « ولعلك إذا استقريت أهل البدع من المتكلمين أو أكثرهم وجدتهم من أبناء سبايا الأمم ومن ليس أصالة في اللسان العربي فعما قريب يفهم كتاب الله على غير وجهه، كما أن من لم يتفقه في مقاصد الشريعة فهمها على غير وجهها»[٣].

وإذا تأملنا المسائل التي أثير حولها الجدل والنقاش نجد أنها لم تظهر وبشكل واضح في الأمة الإسلامية إلا بعد التقاء المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة سواء كان مباشراً كما حدث بعد الفتوحات الإسلامية أو غير مباشر عن طريق الترجمة.

---

(١) ينظر: صون المنطق ١/٥٦.

(٢) الاعتصام ٢/١٧٥.

(٣) الاعتصام ٢/١٧٥.

فلم تكن مسألة الجبر والاختيار والنـــزاع في الصفات والقول بالتعطيل وخلق القرآن وفناء الجنة والنار من نتاج المسلمين، بل هي مسائل معروفة تكلم فيها الفلاسفة القدماء واليهود والنصارى ولم تظهر في الساحة الإسلامية إلا بعد هذا الاحتكاك.

وإذا ما تتبعنا هذه المسائل لمعرفة جذورها ومصادرها عرفنا دور هذا الاحتكاك في نشأة علم الكلام.

فهذه مسألة الجبر والاختيار تكاد تجمع المصادر على أنها ترجع إلى جذور نصرانية. فأول من أثارها هو معبد الجهني قتل(٨٠هـــ) الذي أخذها عن سوسن أو سنسوية النصراني وتبناها من بعده غيلان الدمشقي[١]. وكان هو أيضاً قبطياً ثم أسلم وأظهر مذهبه.

وكذلك مسألة تعطيل الصفات، فأول من قالها الجعد بن درهم قتل سنة (١٢٤هـــ) وكان من أهل حران وكان فيها خلق كثير من الفلاسفة. ويذكر المؤرخون وكتاب الفرق سلسلة إسناد هذه المقولة حيث أخذها الجعد عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الساحر اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وتأثر به الجهم بن صفوان لكنه لم يظهرها إلا بعد مناظرته لجماعة من السمنية (الهنود) الذين اشتهروا بحصرهم العلم فيما يقع تحت الحس فشككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوماً، وقال لا أصلي لمن لا أعرفه فأظهر المذهب وبنى عليه من بعده[٢].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، بل كان هناك من أسلم رهبة وخوفاً من القتل فأظهر الإسلام وأبطن الكفر واندسوا بين صفوف المسلمين لإثارة الشبه وإشاعة المقالات الفاسدة التي تثير الفتنة بين المسلمين مثل اليهودي المنافق[٣]

---

(١) ترجمته في ميزان الاعتدال (٣/٣٣٨).

(٢) الملطي ص ١١٣.

(٣) هـــو: عـــبدالله بن سبأ: ترجمة في لسان الميزان ٣/٢٨٩، الأعلام ٤/٢٢٠. وينظر: كتاب عبدالله بن سبأ ودوره في الفتنة.

الذي دعا إلى ألوهية غير الله، وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي والغيبة والرجعة والمهدية وتبعتها الفرق الباطنية.

كما كان لهم دور كبير في دس كثير من الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على النبي ﷺ لتشويه عقيدة المسلمين وإلقاء الشكوك والشبه في نفوسهم.

ومع أن هؤلاء الموتورين لم ينأوا عن الكيد للإسلام، إلا أن المسائل الكلامية التي أثاروها لم تطرح على بساط البحث والنظر والمناقشة، بل ووجهت بحزم وقوة من قبل السلف من الصحابة والتابعين الذين حذروا من أصحابها وبدعوهم وضللوهم ونهوا عن مجالستهم وكذلك في عهد الدولة الأموية، فهذا الجعد قتله خالد القسري سنة ٨٠هـ وكذلك الجهم قتله مسلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ. قال القيرواني: (ت٣٣٢هـ) «رحم الله بني أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة»[١].

أما في عصر الدولة العباسية فقد كان للفرس دور بارز في الكيد للإسلام، فبعد أن فشلوا في محاربة المسلمين عسكرياً لجأوا إلى محاربتهم في عقيدتهم، وقد أشار ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) إلى ذلك وأنهم لما فشلوا في حرب الإسلام بالسيف لجأوا إلى الكيد للإسلام «...فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار حمية أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي ﷺ ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام»[٢]، وحاربوهم في عقيدتهم وأخذوا ينشرون مذاهبهم الفلسفية القديمة كالمانوية والزاردشتية والمزدكية، بل وترجموا كثيراً من كتبهم إلى اللغة العربية[٣] على يد ابن المقفع (قتل سنة ١٤٥هـ) وغيره.

ومن المسائل التي تسربت إلى العقيدة الإسلامية بعد هذا الاحتكاك مسألة البحث في المعاد – هل هو للأجسام أو الأرواح أو هما معاً أو للأرواح

---

(١) صون المنطق للسيوطي ٤٢/١.

(٢) الفصل لابن حزم ١١٥/٢.

(٣) ككتب ابن ماني وديصان ومرمقون وغيرهم.

فقط؟- التي أثارها المانوية.وكما أن كتب علم الكلام مليئة بمناقشة معتقدات المانوية وآرائهم وتعاليمهم[1].

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى فريق ثالث احتك بهم المسلمون وهم الذين بقوا على دينهم من اليهود والنصارى الذين ما فتأوا يكيدون للمسلمين ويثيرون الجدل والشبهات محاولين زلزلة العقائد وبلبلة النفوس والتشكيك في الإسلام، فقد أثار اليهود الجدل بين المسلمين حول الذات الإلهية والصفات، ومعروف عنهم التشبيه والتجسيم كما هو في كتبهم، وقد انتقلت هذه الأفكار إلى التراث الإسلامي مما عرف بالإسرائيليات في كتب التفسير والحديث، كما أثاروا أيضاً الجدل حول الجبر والاختيار.

أما النصارى فما أن وصل الإسلام إلى الشام والعراق ومصر إلا وبدأت النصرانية تنازعه نزاعاً فكرياً شديداً، ووجد المسلمون النصارى. مسلحين بثقافة فلسفية لاهوتية وانبهر المسلمون بهذا انبهاراً عظيماً فثار الجدل حول صفة المسيح وحول مسائل الألوهية وفكرة الجوهر والعرض والأقانيم الثلاثة والوحدانية وفكرة الخطيئة والصلب، إلا أن هذا الجدل اشتد وبلغ ذروته بعد أن اعتنق كثير من النصارى الإسلام. فتحرك آباء الكنيسة وفي مقدمتهم يوحنا الدمشقي[2] الذي أخذ يرسل رسائله إلى أقباط مصر وأخذ يناقش فيها العقائد الإسلامية ليحول بينهم وبين اعتناق الإسلام. ولم يكتف بهذا بل أخذ يلقن أتباعه أصول الجدل وأساليب محاورة المسلمين بهدف تشكيكهم في دينهم[3].

٣- ضعف الإيمان في النفوس:

رغم إجماع مؤلفي الفرق على أن ظهور المسائل الكلامية يرجع إلى تيارات خارجية؛ إلا أن هذه المشكلات الكلامية ما كانت لتروج بين المسلمين ويثار الجدل حولها لولا انحسار الوازع الديني. فضعف الإيمان في النفوس هو

---

(١) مدخل نقدي لدراسة علم الكلام. للسنهوتي، ص ٢٢١.

(٢) طبيب الأمويين الذي وضع للنصارى أصول الجدل مع المسلمين.

(٣) للاطلاع على نماذج من رسائله التي كان يرسلها ينظر: ضحى الإسلام ٣٤٥/١.

الذي هيأهم لتقبل طرح مثل هذه المسائل وإثارة الجدل حولها، وكلما زاد البعد عن عصر النبوة زاد ظهور البدع والمشكلات الكلامية. وقد تقدم أن بذور الكلام قد ظهرت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، لكنهم قاوموها بحزم وشدة ووأدوها في مهدها.

لكن هذه المقاومة ضعفت تدريجياً بعد موت كبار الصحابة رضوان الله عليهم ثم موت كبار التابعين. ولم تطل هذه التيارات برأسها إلا بعد انقضاء عصر تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية، حيث لم تجد مواجهة أو صداً كما حدث في العهود السابقة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن القدرية لم يجرؤا على الكلام في الذات أو الصفات الإلهية إلا في أواخر صغار التابعين أو في أواخر الدولة الأموية، وكانوا قبل ذلك يقتصرون في الكلام على الأحكام والوعد والوعيد(١).

من جانب آخر فضعف الإيمان أدى إلى الإعراض عن الكتاب والسنة والاشتغال بالكلام والجدل ومناطرة الخصوم. يقول شيخ الإسلام واصفاً حالهم: «ومن المعلوم أن المعظمين للفلسفة والكلام المعتقدين لمضمونهما هم أبعد عن معرفة الحديث وأبعد عن اتباعه من هؤلاء، وهذا أمر محسوس، بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ وأحواله وبواطن أموره وظواهرها، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذلك منهم، ولتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول وما لم يقله، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه وحديث مكذوب موضوع عليه. حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره، بل ربما ذكرت عنده آية فقال: لا نسلم صحة الحديث، وربما قال لقوله عليه السلام كذب وتكون آية من كتاب الله، وقد بلغنا من ذلك عجائب وما لم يبلغنا أكثر (٢).

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/٩٥، ٩٦. ينظر: الفرقان ضمن الفتاوى ١٣/١٧٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/١٧٥.

فلا هم لأحد إلا الجدل والمناظرة والانتصار لمذهبه ولو بالباطل. روى حماد بن زيد أنه قال: جلس عمرو بن عبيد وشبيب بن شيبة ليلة يتخاصمان إلى طلوع الفجر، قال: فلما صلوا جعل عمرو يقول: هيه أبا معمر هيه أبا معمر![1].

كما أنهم جعلوا آراءهم وعقولهم مقدمة على النصوص الشرعية، وإذا ما تعارض النص الشرعي مع رأي أحدهم تأوله على غير وجهه وصرفه من معناه الظاهر ليوافق رأيه وهواه.

وبلغ من اعتدادهم بعقولهم الخوض في المتشابه وفي الغيبيات التي لا مجال لإدراكها، فخاضوا في أسماء الله وصفاته وأفعاله بعقولهم القاصرة.

والمتأمل لكتبهم يلحظ قلة تعظيمهم لكلام الله وكلام رسوله ﷺ « وجرأتهم على الله وقلة توبتهم وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد قياس لئلا يقع انقطاع»[2].

وروي عن الجنيد رحمه الله: « أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب، والقلب إذا عري عن هيبة الله فقد عري من الإيمان»[3].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: ت (١٩٨هـ) «من طلب الكلام فآخر أمره إلى الزندقة»[4].

ومن تأمل أحوال المتكلمين وقرأ سيرهم وأخبارهم عرف ما آل إليه أمر أكثرهم من الزندقة والإلحاد والكفر وأحسن أحوالهم الشك والحيرة والاضطراب. بل إن كثيراً من أساطينهم تخلوا عنه وذموه بعد أن ظهر لهم فساده وعدم استقامة أدلته وسطروا ذلك في كتبهم وقد نقل «إقلاع منطقي المتكلمين عما كانوا عليه لما رأوا من قبح غوائله»[5] وتبين لهم أن أكثر

---

(١) الاعتصام ٢/٢٣٧.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦١.

(٣) رواه الهروي في ذم الكلام ص ٩٥.

(٤) رواه الهروي في ذم الكلام ص ٩٧.

(٥) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٩٨.

الطرائق التي سلكوها لا تفضي إلى اليقين والعلم، ومنهم أبو المعالي الجويني[1](ت ٤٨٧هـ)والغزالي[2](ت٥٠٥هـ).والشهرستاني[3](ت٥٤٨هـ)، والرازي[4] (ت ٦٠٦هـ) وغيرهم.

(١) ينظـر كلامـه في المنتظم (١٩/٩) تلبيس إبليس ٩٨ صون المنطق ص ٦١ والسير للذهبي ١٨/ ٤٧٤.

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٩٤، مقدمة ابن خلدون ص ٨٣٦، جهد القريحة ص ٢٨٦ وما بعده.

(٣) نهاية الاقدام ص ٣، ٤ والملل والنحل له ١٧٣/١، درء التعارض ١٥٩، منهاج السنة ٥ /٢٠٧، الصواعق المرسلة ٦٦/١.

(٤) درء التعارض (١٥٩/١-١٦٠) والرد على المنطقيين ص ١٢١، وجهد القريحة ص ٢٢٠.

المبحث الخامس

موضوعات علم الكـــلام

قبل الحديث عن الموضوعات التي تناولها علم الكلام بالبحث والدراسة لا بد أن نعرف أولاً الأساس الذي اعتمد عليه المتكلمون في دراسة هذه الموضوعات والمسائل؛ أعني الأدلة العقلية. فالعقل عندهم أساس معرفة العقيدة وهو القاعدة التي انطلقوا منها في هذه المباحث وجعلوه حاكماً على النصوص الشرعية فإن وافقت هذه النصوص أدلتهم واستنباطاتهم العقلية أثبتوها، وإن خالفت هذه النصوص عقولهم أخضعوها للعقل وتعسفوا في تأويلها وإخراجها عن معانيها الظاهرة للتوافق معه لأنها عندهم لا تفيد اليقين [1]. ولذلك كثيراً ما يتناقضون، فقد نجد في المسألة الواحدة قولاً لمتأخرين مذهبهم يناقض متقدميهم. فيثبت الواحد ما ينفيه إمامه وشيخه كما في مسألة الجوهر الفرد وغيرها [2]. بل إن الواحد منهم قد يتناقض في أقواله لأنهم لم يحتكموا إلى الوحي المعصوم من الخطأ والضلال، ورحم الله الإمام مالك حيث قال: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد لجدل هؤلاء»[3].

ولذلك فقد تخبطوا في الموضوعات التي بحثوها، لأن هذه البحوث والقضايا إما قضايا لا يمكن الحكم فيها بالعقل فقط وإنما ينبغي أن يكون فيه تابعاً وشاهداً ومؤيداً للكتاب والسنة، وإما قضايا ومسائل لا سبيل له إليها البتة ولا يمكن إدراكها، بل هي مما نهينا عن الخوض فيه وأمرنا بالتسليم والانقياد والإيمان بها، فوقعوا في التخبط والاضطراب، بل وأصبح الطابع العام لمنهجهم التناقض والتردد والشك والوقوف والحيرة وعدم الجزم برأي قاطع كما تقدم.

---

(١) ينظر درء التعارض ١٣/٢، الاستقامة ٦/١، ٢٣، ٤٧-٥٠ والاعتصام ١٦٨/١.

(٢) ينظر الرد على المنطقيين ٢٣٢، تلبيس الجهمية ٤٧٥/١، طبعة ابن قاسم، الاستقامة ٥٠/١.

(٣) ينظـــر: ذم الكـــلام للهـــروي ص ٢٦٨، ٢٦٩، للالكائـــي ١٣٣/١، والدارمي في المقدمة ١١٠/١ بألفاظ متقاربة.

ولما كان المتكلمون قد أخطأوا في الأساس الذي انطلقوا منه وجعلوه قاعدة لمنهجهم، جاءت نتائجهم في جميع المسائل والقضايا التي بحثوها متخبطة ومتناقضة ومضطربة. وهذه الموضوعات هي:

١- العقائد الدينية:

وهي أصول الدين، وهي أخطر الموضوعات التي خاضوا فيها بالعقل وقسموها إلى ثلاثة مباحث رئيسية:

أولاً: الإلهيات:

وهو أكثر المباحث التي تخبط فيها أهل الكلام فخاضوا في أسماء الله وصفاته فعطلوها إما تعطيلاً كلياً أو تعطيلاً جزئياً، وخاضوا في وجود الله وأضاعوا الوقت والجهد في إثبات وجوده الذي لم ينكره إلا شواذ الخلق واستدلوا عليه بدليل حدوث العالم بعد عدم وعلقوا الإيمان بالله على النظر والاستدلال العقلي وأوجبوه على كل مكلف فحجروا رحمة الله الواسعة، بل وأفضى هذا الأصل ببعض المتكلمين إلى تكفير عوام المسلمين الذين لا يستطيعون النظر في أدلة المتكلمين العقلية المعقدة.

وأدرجوا في هذا المبحث أيضاً مسألة القضاء والقدر، فتكلموا في أفعال الله تعالى وبحثوا في الهداية والتوفيق والإضلال والخذلان والاستطاعة والختم والطبع على القلوب والثواب والعقاب وفعل الصلاح والأصلح، وانتهوا إلى قدرية خالصة أو جبرية خالصة، وسبب ذلك أمران:

١- أنهم خاضوا فيما نهى الله عن الخوض فيه وحذرنا منه النبي ﷺ.

٢- أنهم خاضوا فيها بالباطل وبالعقل المجرد بعيداً عن هدي الكتاب والسنة.

ثانياً: النبوات:

وقد كان خوضهم في هذا المبحث أقل من المبحث السابق، فتكلموا في الوحي وأنواعه وأماكنه ووقوعه وحاجة الناس إلى الرسل وما يجب للمرسل وما يجوز وما يستحيل وعصمتهم ودلائل نبوتهم وإعجاز القرآن ووجود الإعجاز فيه وعن الرسالة المحمدية وخصائصها وختمها للرسالات.

ومع أن تخبطهم في هذا المبحث أقل من الإلهيات، إلا أن بعضهم انتهى به بحثه العقلي إلى أن أوجب على الله إرسال الرسل وإنزال الكتب[1].

وبعضهم جوز أن يقع النسخ في شرائع الأنبياء كالأصول الجامعة مثل الأمر بعبادة الله وحده وتحريم الفواحش وغيرها.

ومنهم من جوز على الأنبياء عليهم السلام فعل الكبائر[2].

ومنهم من حصر دلائل النبوة في المعجزات فقط، والبعض الآخر أنكرها تماماً كانشقاق القمر وتسبيح الحصى في يده ﷺ وإنكار إعجاز القرآن في نظمه[3].

ثالثاً: السمعيات:

وهي الأمور الغيبية التي لا تؤخذ إلا من طريق الشرع ولا يستقل العقل بإدراكها كالإيمان بالملائكة والجن والعرش والكرسي وسؤال القبر وعذابه ونعيمه والبعث والحشر والميزان والصراط والشفاعة والحوض والجنة والنار.

ويعد هذا المبحث أقل المباحث التي خاضوا فيها بالباطل وطريقة إثباتها عندهم من الكتاب والسنة الصحيحة، لأن هذه الأمور عندهم ممكنة وجائزة في العقل جاءت في الشرع وأجمعت عليها الأمة، فلا مانع لديهم من إثباتها على ظاهرها الذي جاءت به النصوص.

فأثبت الأشاعرة كل ما جاء في هذا الباب على ما ورد في النصوص وإن كان قد شذ بعضهم في مسألة صفة الصراط[4].

---

(١) مثل قول المعتزلة بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله. ينظر: شرح الطحاوية ص ١٤٨ والتحسين والتقبيح للشاطبي ٢/٥٩، ٩٩، والملل للشهرستاني ١/٣٦.

(٢) ينظر على سبيل المثال كتاب عصمة الأنبياء للرازي.

(٣) ينظر: لوامع الأنوار البهية ٢/١٩٣، وشرح جوهرة التوحيد ص ١٨٠، المنهاج في شعب الإيمان ١/٤٦٣.

(٤) ينظر شرح العقائد النسفية ١/١٦٦، وشرح المقاصد ٥/١٢٠-١٢١، ومقالات الإسلاميين ٢/١٦٤.

أما المعتزلة فقد كان نصيبهم أكبر في إنكار بعضها كالحوض وعذاب القبر والميزان[1].

٢- حراسة العقائد الدينية والدفاع عنها:

حيث كان لبعض المتكلمين من الجهود المشكورة في الدفاع عن الإسلام والرد على خصومه الحاقدين الدهرية والباطني، فناقشوا في كتبهم كثيراً من أهل الأديان والملل الأخرى وفندوا شبههم وردوا باطلهم، فقد ردّ واصل بن عطاء على المانوية في كتابه (ألف مسألة)، وأبو الحسن الأشعري في (جمل مقالات الملحدين)، والقاضي عبدالجبار في الجزء الخامس من كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل)، وأبو بكر الباقلاني في (التمهيد في الرد على الملحدة)، وابن حزم في (الفصل في الملل والأهواء والنحل).

وكما رد المعتزلة على الملاحدة والدهريين والنصارى، وقام الأشاعرة بالرد على المعتزلة والجهمية والرافضة وكسروا شوكتهم وأظهروا شعار السنة كالقول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وإثبات الرؤية وإثبات الصفات والقدر وغيرها من أصول السنة[2].

كما ردوا على الباطنية وكشفوا أسرارهم وفضحوا عوارهم وأصنافهم من القرامطة والاسماعيلية والنصيرية[3].

كما ورد على الفلاسفة في مسألة قدم العالم، فجهودهم في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع لا تخفى على أهل العلم، لكنهم في مناقشتهم لأهل الضلال اعتمدوا على أصول باطلة فاحتاجوا إلى طردها والتزام لوازمها فلزمهم بسبب ذلك أقوال أنكرها عليهم أهل العلم والدين من المسلمين، وحادوا عن الكتاب والسنة وردوا الباطل بباطل والبدعة ببدعة، فمثلاً لما ردوا على

---

(١) ينظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٨٥، ط دار ابن حزم سنة ١٤٢٦هـ.

(٢) مجموع الفتاوى ٥/٥٥٧-٥٥٨.

(٣) درء التعارض ٥/٨.

المعتزلة في مسألة خلق القرآن قالوا بالكلام النفسي، وكذلك إنكار المعتزلة للرؤية فردوا عليهم وأثبتوها لكن لا في جهة.

وهكذا دافعوا عن القرآن والسنة بما يخالفهما، وما أجمل تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية على مقولتهم بأن وظيفة علم الكلام هي حراسة عقيدة العوام فقال رحمه الله: « وأما حراسة عقيدة العوام فيقال: أولاً: لا بد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أخبر به لأمته، فأما إذا كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول وفيه ما يخالفه كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذب عما يناقض خبر الرسول ﷺ، فإن حاجة المؤمنين إلى معرفة ما قاله الرسول وأخبرهم به ليصدقوا به ويكذبوا بنقيضه ويعتقدوا موجبه قبل حاجتهم إلى الذب عن ذلك، والرد على من يخالفه.

فإذا كان المتكلم الذي يقول: أنه يذب عن السنة قد كذّب هو بكثير مما أخبر به الرسول ﷺ واعتقد نقيضه كان مبتدعاً مبطلاً متكلماً بالباطل فيما خالف خبر الرسول ﷺ، كما أن ما وافق فيه خبر الرسول فهو متبع لسنة محقٌ يتكلم بالحق. وأهل الكلام الذين ذمهم السلف لا يخلو كلام أحد منهم عن مخالفة السنة ورد لبعض ما أخبر به الرسول»[1]. فهكذا ينبغي الدفاع عن العقائد الصحيحة والثابتة عن الرسول ﷺ وليس مجرد الاعتقاد.

---

(١) درء التعارض ٧/١٨٢-١٨٣.

المبحث السادس

موقف السلف من علم الكـــلام

أرسل الله محمداً ﷺ للناس فأخرجهم من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وجعل في الكتاب والسنة الدين الكامل والهدي النافع لجميع الناس مبيناً لهم أصول الدين وفروعه، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ونص فيهما على كل ما يعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعذر.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: من الآية ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: من الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: من الآية ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: من الآية ٩].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾. [المائدة: من الآية ١٥: ١٦].

وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً. وأمر بالرد عند التنازع إلى الله ورسوله. قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء: من الآية٥٩].

فالشارع أمرنا بالتمسك بالكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة: من الآية ٩٢].

وقال ﷺ: « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة»(١). وحذر من اتباع الظن وما تهواه الأنفس فقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: من الآية ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: من الآية ٧٧].

وذم الله الجدل فقال: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٤، ٥].

وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨]. وقال ﷺ: « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٢).

ولذا فقد حذر الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم من أهل لجدل وحثوا على التمسك بالسنة. فعن عمر ﷺ قال: « سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن اصحاب السنن أعلم بكتاب الله»(٣).

والآثار الواردة عن السلف رضوان الله عليهم في وجوب التمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بهما ونبذ ما خالفهما والتحذير من الابتداع في الدين كثيرة جداً.

---

(١) رواه أحمد ١٢٦/٤.

(٢) رواه البخاري ٤٥٢٣ ومسلم ٢٦٦٨.

(٣) رواه أبو الفضل المقريء في ذم الكلام ص ١٤٠.

ولما ظهر علم الكلام وانتشر الجدل في مسائل العقيدة بعد ترجمة كتب الفلسفة اليونانية؛ اتفق السلف على ذمه ووقفوا موقفاً حازماً وصارماً تجاه هذا الوافد الغريب وعلى رأسهم الأئمة الأربعة وكثير من الأئمة كالثوري والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد بن الحسن واسحاق الحنظلي ويحيى بن يحيى وابن المبارك ومحمد بن يحيى، فأنكروا هذا العلم وذموه وبينوا خطورته على العقيدة وحذروا من تعلمه أو الخوض فيه أو مجادلة أهله أو مجالستهم، وحثوا على لزوم الكتاب والسنة[1].

فهذا مالك ﷺ يعرض عن مجادلة أهل الأهواء ويصيح في وجه من أتاه منهم للمجادلة قائلاً: « أما أنا فعلى بينة من ديني، وأما أنت فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه»[2].

ولما سئل: « يكون الرجل عالماً بالسنة أيجادل عنها ؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه وإلا سكت»[3]. وقال: « أهل الأهواء بئس القوم لا يسلم عليهم واعتزالهم أحب إليَّ»[4].

وقال الإمام أحمد: « علماء الكلام زنادقة»[5].

وقال أيضاً: « لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل»[6].

---

(١) ينظر بيان تلبيس الجهمية. تحقيق ابن قاسم (١٣٩/١) درء تعارض العقل والنقل ١٤٤/٧-١٤٥، اغاثة اللهفان (٦٦٠/٢).

(٢) مناقب الإمام مالك للزواوي ص ٣٧.

(٣) صون المنطق ص ١٣٤.

(٤) الانتقاء ص ٣٤.

(٥) تلبيس إبليس ص ٩٦.

(٦) جامع بيان العلم وفضله ٩٥/٢.

بل وهجروهم، فقد روي عن أحمد أنه هجر الحارث المحاسبي لرده على المبتدعة بعلم الكلام وقال له: « ليس السنة أن ترد عليهم ولا يناظرون، إنما السنة أن يخبروا بالآثار والسنن، فإن قبلوها وإلا هجروا في الله»[١].

وبين الشافعي خطورته فيقول: « إن سألك رجل عن شيء من الكلام فلا تجبه، فإنك إن زللت قال لك: كفرت»[٢]. وقال: « لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه سوى الشرك خير له من الكلام»[٣].

ويقول أيضاً: « لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بما نهى الله عنه خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بالكلام»[٤].

وقال أبو حنيفة: « لعن الله عمرو بن عبيد، إنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام»[٥]. ولما سئل عن ما أحدث الناس من الكلام في زمنه فقال: «مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة»[٦].

قال سفيان الثوري: « عليكم بالأثر وإياكم والكلام في ذات الله عز وجل»[٧]. بل إن الشافعي (ت ١٥٠هـ) لم يعده من العلوم حيث قال: « لو أن

---

(١) صون المنطق ص ٢٨.

(٢) رواه أبو الفضل المقريء في ذم الكلام ص ٨٠.

(٣) آداب الشافعي ص ١٨٢، وانظر السنن الكبرى للبيهقي ٢٠٦/١٠.

(٤) رواه أبو الفضل المقريء في ذم الكلام ص ٨١.

(٥) رواه أبو الفضل المقريء في ذم الكلام ص ٨٨.

(٦) ينظر مرقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة للغصن ٧٩/١ نقلاً من رواية الهروي.

(٧) رواه أبو الفضل المقريء في ذم الكلام ص ٨٩.

رجلاً أوصى بكتبه من العلم لأحد وكان فيها كتب الكلام لم يدخل في الوصية لأنه ليس من العلم»[1].

وعن عبدالرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ) قال: « من طلب الكلام فآخر أمره الزندقة»[2]. ولم يكتفوا بذلك بل إنهم ألفوا الكتب في ذم علم الكلام والتحذير منه وهي كثيرة جداً، منها:

١- ذم الكلام وأهله للهروي.
٢- الرد على أهل الكلام لأبي عبدالرحمن السلمي.
٣- رسالة في الغنية عن الكلام لأبي سليمان الخطابي.
٤- إلجام العوام عن علم الكلام لأبي حامد الغزالي.
٥- تهافت الفلاسفة للغزالي.
٦- تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة المقدسي.
٧- الرد على المنطقيين لابن تيمية، ونقض المنطق لابن تيمية، وغيرها من كتبه.
٨- صون المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي.
٩- فصل الكلام في ذم الكلام للسيوطي أيضاً.

وغيرها كثير شعراً ونثراً.

وبعد استعراض أقوال أئمة السلف في علم الكلام فإنه لا بد من ذكر مسائل هامة تتعلق بموقفهم من هذا العلم أجملها فيما يلي:

١- أن ذم السلف للكلام إنما أرادوا به الكلام المذموم المخالف للكتاب والسنة وليس جنس الكلام أو الكلام الحق. بل ذموه لما فيه من الكذب والمعاني الباطلة المخالفة للكتاب والسنة والعقل الصريح وكل ما خالف الكتاب والسنة الصحيحة فهو باطل وكذب فإن أصدق الكلام كلام الله.

---

(١) رواه الهروي في ذم الكلام ص ٣٥٧.

(٢) رواه أبو الفضل المقرىء في ذم الكلام ص ٩٨.

٢- أن السلف لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمالها على معاني مجملة في النفي والإثبات وأدخلوها في أصول الدين في دلائله أو في مسائله وما لا يصح وأما إذا عرفت المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب وعبر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالفه، فهذا عظيم المنفعة وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه.

٣- أنه يباح مجادلة أهل الكلام والرد عليهم ودحض شبههم ورد باطلهم، وقد يكون الرد عليهم واجباً أو مستحباً، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ولا يكون من الكلام المذموم ولكن بشروط:

١- أن يكون المتصدي لذلك ذا أهلية عالماً بالعلوم الشرعية يستطيع القيام بواجبها وذلك ليتصدى لحل شبهاتهم وبيان فسادها « فمن كان عارفاً بحل شبهاتهم بينها، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة.. ومن يتكلم في الله وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل»[١].

٢- أن يكون مأموناً عليه من الضلال والافتتان بشبههم وضلالاتهم، ولذلك نهى العلماء عن مجالسة أهل البدع ومناظرتهم ومخاطبتهم. قال القاسمي: «فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته إياهم فإنه صار مجرى سلطان ذي أخبار وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيثما توجه، ولهذا جوز له الاستماع إلى الشبه، بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم، فالعالم أفضل المجاهدين الذابين عن الدين»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٢٦٠-٢٦١.

(٢) دلائل التوحيد للقاسمي ص ١١.

٣- أن يكون لمجادلتهم حاجة من مصلحة راجحة أو دفع مفسدة راجحة لبيان الحق ودفع الباطل وليس لمجرد الجدل والانتصار للنفس واتباع الهوى.

وقد ناظر السلف أهل البدع المشهورة ومنهم الإمام أحمد ﷺ لما ابتلي بمخالفي السنة واحتاج إلى مناظرتهم، فرد عليهم بالأدلة العقلية الموافقة للكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « وأحمد ﷺ قد رد على الجهمية وغيرهم بالأدلة السمعية والعقلية، وذكر من كلامهم وحججهم ما لم يذكره غيره، بل استوفى حكاية مذهبهم وحججهم أتم استيفاء ثم أبطل ذلك بالشرع والعقل»[1].

---

(١) در التعارض ٧/١٤٩.

الخاتمـــــة

ومما تقدم يتضح لنا أن السلف رحمهم الله وإيانا - يتبعون كلام الله وكلام رسوله ﷺ باطناً وظاهراً وأنهم يقدمون ما جاء فيهما على غيرهما ولا يقفوا مكتوفي الأيدي عند الحاجة إلى مجادلة خصم لا يعرف النقاش أو الكلام أو حين الدفاع عن الدين - إلا بمثل هذه الطرق بل يتنـــزلون معه ويحاولون هدايته وبيان الحق بكل وسيلة تهديه بإذن الله وهذا من الحكمة.

وأما في هذا العصر الذي حدثت فيه أمور أخرى لم يتطرق إليها الأوائل من السلف فنحتاج إلى أساليب جديدة تعرف بالإسلام بصورته الشاملة كدين وحضارة وبعث النشاط في قيمة العليا سواء في حقائقها الميتافيزيقية أو أنظمتها التشريعية والاجتماعية والسياسية الأخلاقية في هذا العصر المصطبغ بالتقدم العلمي المادي الذي عزل الإنسان عن القيم الروحية التي غذته بها الأديان.. حيث أن العلماء اعترفوا في هذا القرن بأن العلوم المادية لا تعطى إلا علماً جزئياً عن الحقائق.. مما جعلهم يضطرون إلى العجز والخضوع أمام آلاء الله والإقرار بأن الزهو بالعلم والاكتشافات العلمية كان تعبيراً عن قصور في إدراك الإنسان لمدى قدرته إزاء سنن الله الكونية، ثم أظهرت الاكتشافات أن الإنسان لا يستطيع اكتشاف قوانين حياته بنفسه وأن الأشياء التي لا تطلع عليها هي أهم بكثير من التي تطلع عليها، وإقراراً لهذا الواقع اشترك نحو مائة وخمسون من كبار علماء العالم في نشر معجم بعنوان: « دائرة معارف الجهل»[1] موضحين الكثير من الظواهر والحقائق الإنسانية والكونية التي لا تزال بدون تفسير.

وإنني أعتقد جازماً أنه لو استطاع المسلمون نشر وكشف حقائق إعجاز القرآن الكريم والسنة أمام العالم، وبث مثله بصورة حسنه لكان لذلك الأثر

---

(١) قواعد المنهج السلفي، لمصطفى حلمي ص ٨٠-٨٣.

البالغ في هداية البشرية التي تتعطش لراحة الضمير وهدوء البال ومعرفة المصير وذلك بكل حرية ومن دون أسرار غامضة أو تناقض في الاعتقادات، حينها سيجد الإنسان نفسه مضطراً إلى تغيير قيمه ومقاييسه إلى هذه الحجوم والكتل الهائلة التي لا يستطيع أن يجد لها شبيهاً معقولاً لا يساعده على تصورها وفهمها.

فيعترف أن وراءها خالقاً مدبراً حكيماً يخضع له الكون كله وأن الإنسان ذرة صغيرة فيه.

والإعلام والدعاية آية هذا العصر وهو سلاح خطير يفعل ما لا تفعله الجيوش الجرارة، وعلى أي حال فتبقى طريقة الرسول ﷺ في دعوة الناس وهديهم هي المثل الأعلى والطريق الواضح ولا سيما في أصول الدين والتوحيد.

ثم لنعلم أن العلم الحقيقي والعقل الصريح لا يتعارضان مع النقل الصحيح ولا يخالفانه قط فإن الميزان مع الكتاب﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[1] ولكن قد تقصر عقولنا عن معرفة التوفيق بينهما وتحار في ذلك لعجزها فإذا بينا ذلك بوضوح يمكن أن يقوم بدور أنجع من أساليب علم الكلام القديمة والحديث في العرض والجوهر والوجود المطلق والماهية. فلا يقف عند حدود علم الكلام، والذي انحصر في الكتب القديمة وقاعات الدرس يردد القضايا البالية معزولاً عن مواجهة صريحة لمشكلات العصر وقضايا الساعة من التيارات الإلحادية والمذاهب الفلسفية الجديدة التي جدت بين المسلمين نتيجة التحام العالم بطريقة لا تعرف الحدود. مما يجعل على أهل الإسلام تبعه ثقيلة في نشر الدين والدفاع عنه وحراسة العقائد والشرائع التي جاء بها النبي ﷺ وهذه بعض الاقتراحات:

---

(١) سورة الشورى، آية ١٧.

١- تجـنب سقطات عنم الكلام والاعتماد على طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية في تقرير العقائد ونشر الدين - دون تعقيدات الفلسفة وعلم الكلام - فهما كفيلان بهداية الناس إلى الله قديماً وحديثاً.

٢- الاستفادة من منهج السلف الصالح في ردهم على خصوم الدين وأعداء الملة في رد الحجة بالحجة والدليل العقلي بدليل عقلي موافق للشرع وذلك للتصدي للفلسفة التي تسربت إلى بلاد المسلمين تحت مسميات مختلفة، كبعض أنواع البرمجة اللغوية العصبية وغيرها من الفكر الوافد إلى بلاد الإسلام والذي انتشر بطريقة مذهلة وتبناه بعض أبناء المسلمين.

٣- العناية ببيان آثار عقائد الإسلام في النفوس من الراحة والطمأنينة ومعرفة المراد من خلقه ومعاده.

٤- توجيه العناية إلى المسائل التشريعية التي اعتاد أعداء الدين أن يثيروا حولها الجدل والثرثرة مثل قضايا المرأة، والحدود الشرعية وحقوق الإنسان والجهاد.

٥- عرض العقائد الإسلامية عرضاً واضحاً مشرقاً وتقديمها بلغة عصرية واضحة متسمة بالسهولة واليسر والاستدلال بأدلة مقنعة، تواجه حملات التشويه.

٦- الدفاع عن شخص الرسول ﷺ وبيان رسالته ومعجزاته وخُلُقه وأن الوحي الذي أنزل عليه مثل غيره من الرسل عليهم السلام والتنبيه إلى ذكره بعض عقلاء الأعداء عن شخصيته ﷺ وجوانب العظمة التي وهبه الله إياها.

٧- بيان ما في القرآن من التحدي والإعجاز، وعرض الأخبار عن أشراط الساعة التي أشار إليها الدين في أصليه القرآن والسنة. والله غالب على أمره قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]. والله أعلم وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) سورة فصلت، آية ٥٣.

أهم المراجع والمصادر

١- ابن أبي العز. شرح العقيدة الطحاوية. تحقيق د. عبدالله التركي.

٢- ابن خلدون: المقدمة ط التجارية.

٣- ابن الجوزي: عبدالرحمن بن الجوزي. تلبيس إبليس المطبعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.

٤- ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين.

٥- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، مطبعة الاستقامة، ١٣٤٨هـ، مصر.

٦- ابن الهمام: المسايرة في علم الكلام.

٧- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، الرد على المنطقيين، لاهور باكستان ١٣٩٦هـ.

٨- ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية، تحقيق عبدالرحمن بن قاسم.

٩- ـــــــ، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام.

١٠- ـــــــ، درء التعارض، ط جامعة الإمام، ١٤٠١هـ.

١١- ابن حجر: تهذيب التهذيب. ط: دار صادر بيروت.

١٢- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الأهواء والملل والنحل، ط١، القاهرة، ١٣٢١هـ.

١٣- ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله، ط. الفنية، القاهرة، ١٤٠٣هـ، وطبعة أخرى السلفية ١٣٨٨هـ.

١٤- ـــــــ: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء.

١٥- ابن كثير: إسماعيل، البداية والنهاية. ط: مطبعة المعارف الأولى، سنة ١٩٦٦م.

١٦- ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم، تأويل مختلف الحديث، بيروت ط: الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

١٧- ـــــــ: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ضمن عقائد السلف.

١٨- ابن منظور: جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، ط، دار صادر، ١٤١٠هـ.

١٩- أبو الفضل المقريء: أحاديث في ذم الكلام وأهله. دراسة وتحقيق د.ناصر الجديع. دار أطلس للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٠- أبو زهرة محمد: الإمام أبو حنيفة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ط:عالم الكتب، ١٩٥٣م.

٢١- أحمد أمين: ضحى الإسلام.

٢٢- الربيعة: عبدالعزيز بن عبدالرحمن: علم التوحيد ط (١)، الرياض، سنة ١٤٠٩هـ.

٢٣- الأسفراييني: أبو المظفر، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

٢٤- الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار العلوم للنشر والطباعة، القاهرة.

٢٥- البخاري: الإمام محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري.

٢٦- البزدوي: علاء الدين بخاري، كشف الأسرار على أصول البزدوي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٧- البياضي: كمال الدين أحمد بن حسن، إشارات المرام في عبارات الإمام، تحقيق وتعليق يوسف عبدالرزاق، ط: مصطفى الحلبي، ط١، ١٩٩٤م.

٢٨- التفتازاني: شرح العقائد النسفية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومية بدمشق، سنة ١٩٤٧م.

٢٩- ـــــــــ: شرح المقاصد.

٣٠- التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، كلكتا، سنة ١٨٦٢م.

٣١- الجوهري: الصحاح.

٣٢- الحجر: رزق، ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ.

٣٣- الحارثي محمد قاسم: مكانة الإمام أبي حنيفة بين المحدثين، ط ١،مطابع الصفا، مكة المكرمة.

٣٤- الحكمي: حافظ بن أحمد، معارج القبول،ط: دار ابن القيم، ١٤١٠هـ.

٣٥- الخطيب البغدادي:أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٩٦٣م.

٣٦- الذهبي: شمس الدين. سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، عام ١٤٠٥هـ.

٣٧- الزواوي: مناقب الإمام مالك. المطبعة الخيرية ١٣٢٥هـ.

٣٨- السفاريني: لوامع الأنوار البهية وشرحها، محمد بن علي بن سلوم ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.

٣٩- السيوطي: جلال الدين بن عبدالرحمن، صون المنطق والكلام.تحقيق د. علي النشار، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

٤٠- الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الاعتصام، تعليق محمد رشيد رضا، ط: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ.

٤١- الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، دار الفكر، بيروت.

٤٢- الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام.

المنقذ من الضلال: المكتبة الثقافية، بيروت، بدون تاريخ، تعليق محمد جابر، ط: دار الطباعة المنيرية، ١٣٥١هـ.

٤٣- الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد) إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، الفكر العربي، ط٢، ١٩٤٩م.

٤٤- القاسمي: محمد جمال الدين، دلائل التوحيد، جمعية النشر والتأليف الأزهرية، ١٣٤٦هـ.

٤٥- القفاري: ناصر، مقدمات في الاعتقاد.

٤٦- الكوثري: محمد زاهد، آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق عبدالغني عبدالخالق ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٧- اللالكائي: هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، دار طيبة للنشر والتوزيع تحقيق أحمد سعد حمدان، ١٤٠٢هـ.

٤٨- المكي: أخبار أبي حنيفة وأصحابه. ط: حيدر آباد، الدكن ١٣٩٤هـ.

٤٩- الملطي: محمد بن أحمد. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ط: رمادي للنشر، السعودية، ١٤١٤هـ.

٥٠- النسفي: أبو المعين. بحر الكلام. ط: القاهرة، ١٩٢٢م.

٥١- ـــــــ: العقائد النسفية، شرح العقائد النسفية بهوامشها ط ١ سنة ١٣٣١هـ، الكتبي بمصر.

٥٢- النشار: علي سامي. عقائد السلف ط: منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٧٠م.

٥٣- الهروي: عبدالله بن محمد الأنصاري، ذم الكلام، تحقيق عبدالرحمن الشبل، ط١، مكتبة العلوم والحكمه ١٤١٦هـ.

٥٤- خليل بن أيبك الصفدي. الغيث المسجم في شرح لامية العجم. نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٥٥- سليمان الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ط: دار العاصمة، ١٤١٦هـ.

٥٦- صديق خان: أبجد العلوم، بدون تاريخ.

٥٧- طاش كبرىزاده: أحمد مصطفى طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٧م، وأخرى: ط دار المعارف الأولى.

٥٨- عبدالله بن الإمام أحمد: السنة، تحقيق د. محمد سعيد القحطاني، ط ١٤٠٦هـ، دار ابن القيم.

٥٩- عثمان ضميرية: المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية. نشر مكتبة السوادي، جده، ط ١٤١٤هـ.

٦٠- علي المغربي: الفرق الكلامية.

٦١- محمد السنهوتي: مدخل نقدي لدراسة علم الكلام. ط: دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٤١٠هـ.

٦٢- محمد عبده: رسالة التوحيد للامام محمدعبده بدون تاريخ، تعليق رشيد رضا.

٦٣- مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٦٤- مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦٥- ـــــــ: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، ط دار الدعوة، الإسكندرية، بدون تاريخ.

٦٦- مصطفى عبدالرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٩م.

٦٧- فرغل: يحيى هاشم، نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية، ط مجمع البحوث الإسلامية بمصر، سنة ١٣٩٢هـ.